سهيل ادريس

التل والنورس

١ ـ المسافر الجريح

كانت انظارنا جميعا مشدودة اليه ، وهو يجهد بمشقة لتسلق ذلك السلّم الحديدي العجيب ، الملتصق بخاصرة الباخرة . ولولا ان أعانه شابان قويان دفعاه من خلف ، ومد اليه ثالث ذراعه من اعلى ، لهوى الى الارض .

همس أحد المسافرين قريباً منا :

ـ انه مصاب بجرح بليغ .

قال آخر :

ـ وهو مسافر للعلاج في مصر .

وما كاد يبلغ ظهر الباخرة ، حتى تدافعنا نتسابق للتسلق .

وحين استقرّت أقدامنا ، كنا نلهث ، ما عدا سامي . أيكون ذلك بفضل اعوامه الخمسة عشر ، ام ليقينه بانه سيستطيع اخيرا ، ان ينام هذه الليلة بلا كوابيس ؟

٢ ـ لن نترك ولكن ...

الى ما قبل اسبوع فقط ، كانت الهام تعارض بشدة كل اقتراح بالسفر . لم تكن تريد ان تترك البيت، بأي ثمن . لن نهاجر ، كانت تقول . لن نقع في غلطة الفلسطينيين . نبقى هنا . نموت ولا نترك . ولكنها سرعان ما تستدرك حين تتذكر الاولاد ، قائلة ان بوسعنا ان نحتمي . نستطيع ان نلازم الممر الرئيسي في المنزل، عند المدخل ، كما فعلنا ليلة الصواريخ .

كالمطر ، انهالت على حينا القذائف تلك الليلة . طلبت مني الهام ان اعينها في نقل الفراش الى الممرّ . ولا بد ان سامي قد لاحظ اني كدت أنوء بحملي ، فسارع ينقل وحده الفراش الثاني . وتعاون مع ربيعة في حمل الفراش الثالث . وأغلقت الهام ابواب غرف النوم والطعام والمطبخ ، وقالت اننا سنكون هنا آمنين .

وبالرغم من اننا كنا آمنين ، فنحن لم ننم تلك الليلة . كانت انفجارات الصواريخ تتوالى حول منزلنا . وذات لحظة ، سمعنا انفجارا شديدا هزّ الجدران هزا، سرعان ما تبعه صوت انهيار . قدّرت الهام ، وقد ظهر على وجهها الرعب ، انها شرفة غرفة الاستقبال . وحين رأيت مني ممتعقة ، قلت ، وأنا غير مقتنع ، انها شرفة في المبنى المجاور .

وانتظرت حتى هدأ القصف قليلا فتناولت شمعة، وتوجهت الى باب غرفة الاستقبال . احتجّت الهام وحذرتني من عودة القصف . ولكني كنت قد دخلت. وحين عدت ، سألت مني :

ـ أهي الشرفة ؟

فلم أجب . ففهموا . وظلوا صامتين .

لكن الهام قالت بعد لحظات :

ـ ومع ذلك ، فلن نترك البيت .

واستلقت على الفراش ، وأدارت وجهها الى الجدران . ولكننا لاحظنا ، نحن الاربعة ، ان جسمها كان يهتز تحت الغطاء .

تناولت الترانزستور . كان المذيع يتحدث عن صمود التل . عن صد الهجوم الرابع والثلاثين .

٣ ـ الرفاق ... الخونة !

قال مسافر :

ـ انها لشحن البضائع . ولكن عليها اكثر من سبعمئة راكب .

قالت سيدة سمينة :

ـ ولكن كيف ننام ؟ انها لا تتسع لنا واقفين .

قالت فتاة رشيقة :

ـ ولكنا لن ننام يا خالتي . إنهما ليلتان ، ونصل الاسكندرية .

ارتفع صوت صبي في نغمة نحيب :

ـ انا جوعان يا ماما .

أجاب رجل بلهجة فلسطينية :

ـ اخرس . الآن انتهيت من الاكل .

همس صوت امراة بلهجة فلسطينية :

ـ خذ . هذه عروس ثانية ، واسكت !

تساءل شاب بلهجة لبنانية :

ـ أليس عندهم عصير او شاي ؟

أجابه آخر بلهجة ساخرة :

ـ طبعا ! وعندهم أيضا ويسكي وشمبانيا !

ضحك البعض ضحكة قصيرة سرعان ما اختنقت .
ارتفع صوت :

ـ اتتصورون يا جماعة ؟ مرحاض واحد للباخرة كلها !

اختلطت الاصوات : أعوذ بالله ! مشكلة ! هل هذا صحيح ؟

ثم صمت الجميع ، يفكرون كيف يتدبرون أمرهم للتبول او التغوط .

شدت الهام على ذراعي وقالت بصوت خافت :

ـ حظنا كبير ان يؤجرنا ذلك البحري غرفته . سينام سامي الليلة هادئا ، على ذلك السرير ، ولو كان ضيقا .

سألتها :

ـ وربيعة ومنى ؟

قالت :

ـ سأفرش لهما الحرام الذي جلبناه .

ـ وانت ؟ انك متعب جدا ..

قلت وانا اضع يدي على كتفها :

ـ سأجلس هنا في الزاوية . يكفي ان أسند ظهري الى الحديد .

قالت :

ـ سأجلس الى جانبك .

ونظرت اليّ نظرتها تلك ، تحمل مزيجا من العرفان والعتاب . فشددت على كتفها ، ثم هبطت كفي حتى التقت كفها ، فضمت اصابعها .

اذ ذاك ، وعلى ضوء المصباح الشاحب المعلق قريبا من مدخنة الباخرة ، رأيته يقترب ويمد يده وهو ينطق باسمي في لهجة تساؤل . وحين أومأت برأسي ، قال انه يعرفني . واجابني على سؤالي بانه من مقاتلي التل ، وانه أصيب برصاصة قناص في خاصرته ، منذ أيام ، وان الصليب الاحمر استطاع اخراجه ، نزولا على الحاح رفاقه ، لانعدام العلاج في المخيم ، وخشية ان ينزف دمه .

قال سعيد :

ـ انها خيانة من الرفاق . لقد نقضوا العهد ..

سألته الهام :

ـ كيف ذلك ؟ وأي عهد ؟

لم يجب سعيد الا بعد لحظة صمت :

ـ ان نقاتل معا حتى النهاية . ننتصر او نموت .

قالت الهام :

ـ ولكنك لا تستطيع ان تقاتل ، وأنت جريح ؟

أجاب سعيد :

ـ لو صبروا عليّ يومين لشفيت .

ثم صمت . قلت له :

ـ ولكنك ستشفى ، وستعود الى المخيّم .

قال سعيد ، وهو يصرف نظره عنا :

ـ كنت أريد ان أبقى معهم . استشهد ثلاثة منهم .
واستدار يواجه البحر ، وأخذ جسمه يرتعش .

وتقدمت منه فأحطت كتفه بذراعي وانا أتمتم بكلمات مبهمة .

قال سعيد وهو يجالد ننفسه :

ـ كنت اريد ان اموت معهم ..

قالت الهام بصوت يغالب الاختناق :

ـ لكنك ستجد رفاقا آخرين كثيرين ..
أجاب سعيد :

ـ لن يكونوا مثل أحمد والياس وكمال .

وعاد جسمه يرتعش ، فيما ارتفع بين المسافرين صوت ترانزستور يتحدث عن صد الهجوم الستين في تل الصمود .

٤ ـ السرب المواكب

أفقت باكرا على صوت زقزقة . كان سرب من النورس يواكب الباخرة ، كأنه يحرسها . فركت عيني اتابع الطيور تفرد اجنحتها سابحة تارة ، وتخفقها طورا وهي تزقزق .

شعرت بألم في ظهري من أثر الحديد الذي استندت اليه جالسا ، وبتخشب في ساقي . التفت الى الهام . كانت متدثرة بمعطفها حتى العنق ، مع ان الجو لم يكن باردا .

فيما كنت أتمطى ، لمحت سعيد واقفا هناك ، في مقدم الباخرة ، متجها الى البحر . نهضت على مهل وسرت نحوه . وضعت يدي على كتفه وقلت :

ـ صباح الخير .

فلم يلتفت اليّ ولم يرد السلام . وما لبثت ان فهمت . كان يتحدث الى طائر من سرب النورس اتخذه صديقا منذ الفجر . ولم يكن يريد ان يقطع حديثه أحد .

٥ ـ حديث مع النورس عن الياس

كان الياس ، يا عزيزي النورس ، أحب الرفاق اللبنانيين اليّ ، كان يسكن التل مع أمه منذ بضع سنين . وكان قد تدرب معنا على القتال ، وكان يحب الشعر وينظمه في اوقات الراحة . أحب نجوى ، شقيقة رفيقنا احمد . وتعاهدا على الزواج بعد انتهاء المعركة. وقد مازحته مرة متسائلا : ايعتقد انه سيكون ناجحا زواج لبنان هذا بفلسطين ؟ فقال جادا ان لبنان بحاجة لان يكتوي بنار الثورة حتى يتغير .

ولكن الياس أصيب بمثل الذهول حين دخل ذلك

الجيش ارض لبنان . فكان لا يفتأ يردد : هل نستطيع ان نقاتل على جبهتين ؟

وظلت علاقات الفجيعة على وجهه ، ممزوجة بخيبة شديدة كان يعبر عنها بتوتر بالغ حين كان يقف وراء مدفعه الرشاش يطلق نيرانه ، وكأنه يوجهها الى عدو بعيد جديد ، قبل ان يوجهها الى عدو قريب يكمن خلف التل .

وقال لي الياس ذات صباح ، بعد ان أشتد القصف على المخيم في الليلة السابقة ، انه يحبذ اجلاء سكان التل ليملك المقاتلون حرية اكبر في الرد والاقتحام .

ولم يعانق الياس نجوى وهو يودعها حين أجلى الصليب الاحمر الدفعة الاولى من سكان المخيم . بل اكتفى ببسمة حزينة وهو يشد على يدها ويخفض رأسه حين رآها تبكي .

لم يعانق الياس نجوى ، يا عزيزي النورس ، ولكنه عانق الموت وهو يصد مع مجموعته محاولة عنيفة لاقتحام التل .

٦ ــ انه بيتك أيضا ...

قالت ربيعة بلهجة تأفف :

ــ ماما .. انه في نوم عميق . لا تقلقي . لم يصرخ صرخة واحدة ...

صمتت الهام ، ثم تمتمت : « الحمد لله » .

ذلك اليوم ، منذ زهاء اسبوع ، حذرت سامي مرات من الخروج . واستجاب لها اول الامر ، لان الانفجارات لم تكن تنقطع . ولكن القصف توقف ذات لحظة ، وظل الهدوء سائدا زهاء ساعة . اذ ذاك ، فتح سامي الباب وقال انه ضجر جدا ، وهو قاصد قاعة البليارد في المنعطف القريب ، ولن يتأخر اكثر من نصف ساعة . كنت أعلم اننا سنخفق في حمله على العدول . وهمت الهام بالكلام ، ولكنه كان قد صفق الباب وراءه .

لم تمض دقيقتان حتى حصل ذلك الانفجار المروع . وصرخت الهام : « سامي .. سامي ! » كنا جميعا مذعورين ، ولكنني لم أشاهد طوال حياتي وجها قلب الذعر ملامحه كلها كالوجه الذي كانت تحمله الهام في تلك اللحظة . وكأنها ادركت ان سحنتها المألوفة قد فارقتها ، فغطت وجهها بيدها ، وارتمت على المقعد ، وهي تخور قائلة : « سامي .. دخيلكم .. قتله الصاروخ ! »

كنت مشلول التفكير والحركة ، وكانت ربيعة ومنى ممتقعتين ، لا تعرفان ما ينبغي ان تفعلاه . ثم كانت منى أسرعنا الى التحرك ، فاذا هي تنطلق متجهة الى الباب لتهبط السلم على عجل . تبعتها وانا ادافع عني الفكرة الرهيبة . حتى اذا بلغنا مدخل المبنى ، رأينا سامي مستندا الى جدار المدخل الايمن ، مخفيا رأسه ووجهه بذراعيه ، وقبل ان ندركه ، سقط على الارض مغمى عليه .

أقسم سامي ، بعد ان عالجته من اغمائه احدى ممرضات المستوصف القريب ، انه رأى بعينه برقا متجها اليه وهو يصفر صفيرا مخيفا قبل ان ينفجر على جدار البناء المجاور . وقال انه سمع تلك اللحظة صرخة هائلة أدرك على الفور انه هو الذي اطلقها ، لأن المكان كان خاليا ، فارتد مذعورا الى مدخل المبنى .

وبالرغم من ان سامي لم يصب بأية شظية ، فقد أخذت الهام ، بعد ان تلقته على صدرها ، تتلمس أطرافه وعنقه وظهره وصدره تبحث عن أي اثر من شظايا القذيفة ربما يكون قد أدركه . وكانت جارتنا الفلسطينية وبناتها يحاولن ان يهدئن من روعها والدموع تتلألأ في عيونهن .

طوال ليالي الاسبوع الماضي ، كان سامي يصرخ في الليل كلما انفجرت قنبلة قريبة . وكنا ، انا والهام ، نهرع الى غرفته كلما ايقظنا الصراخ او القنابل ، فنراه مفتوح العينين مذعورا ، كأنه ينتظر الانفجارات .

في الليتين الماضيتين ، انقطعت القذائف تقريبا . ولكن صرخات سامي لم تنقطع حتى وهو مستغرق في النوم . كان يعاني الكوابيس .

كفت الهام عن التحدث عن البيت ، فيما كانت تملأ حقيبتي السفر بالملابس ، وعيناها تنديان بالدموع .

وحين أقفلت باب المنزل صباح امس ، وقفت الهام لحظة تتأمله ، كأنها تشك في ان تعود اليه ، ثم التفتت الى جارتنا الفلسطينية التي كانت واقفة تودعنا ، وأقبلت عليها تعانقها وهي تهتز بالبكاء .

قالت الهام للفلسطينية :

ــ انه بيتك ايضا . فأرجو ...

قاطعت الفلسطينية الهام :

ــ بل هو بيتكم وحدكم . وستعودون اليه قريبا .

ثم أضافت :

ــ نحن هنا ضيوف . وبيتنا هناك . وبانتظار ان نعود اليه ، سنحافظ على بيتكم ، هذا الذي آوانا .. وحمانا ..

ثم عادت الفلسطينية وبناتها يقبلن الهام والاولاد ، داعيات لنا بسلامة الوصول والعودة .

٧ ــ من تقرير اخباري

انبعث صوت المذياع من الترانزستور ، على ظهر الباخرة :

« بعث مراسل صحيفة « لوموند » في بيروت تقريرا اخباريا وصف فيه الحال التي يعيشها سكان

تل الزعتر اثر الحصار اللا انساني الذي فرضه عليهم الانعزاليون منذ اسابيع كثيرة . وقال المراسل : « ان اللاجيء الذي يحصل على طبق واحد من العدس يوميا يعتبر محظوظا ايما حظ ! » وفي بداية ايام الحصار كان هنالك بعض العناية بالجرحى من الاطفال والنساء ، لكن بمرور الايام ، تناقصت المواد الطبية ، وانعدمت في العديد من المخابيء ، حيث تقيحت الجروح ، وأودت بالكثيرين من الاطفال والنساء . اما الماء ، فان الحصول عليه يعني التعرض لموت محقق . فقد رصدت القوى الانعزالية كافة الطرق المؤدية لنقاط المياه في المخيم ، حيث تشدد قصفها اثناء الظلام ، اي في الوقت الذي تختاره النساء للتزود بالماء . »

٨ – ذخيرة الايام الآتية

تاهت سفينتنا في البحر يومين . شرب القبطان الخمرة في الليلة الثانية ، شرب حتى ثمل ، فأضاع الاتجاه .

حين قوّم الدفة في الاتجاه الصحيح ، كانت مؤونة الطعام والماء قد نفدت من أكياس المسافرين .

قالت المرأة السمينة :

– أكاد أموت جوعاً .

فقدّمت لها امرأة اخرى آخر قطعة حلوى باقية في علبتها . وبعد ان التهمتها السمينة في لحظة ،تلمظت ثم قالت :

– لقد ازداد جوعي !

فلم يرد عليها أحد . ثم قال الطفل الفلسطيني :

– ماما .. انا عطشان !

صاح به أبوه على الفور :

– اخرس ! ساعة جوعان ، ساعة عطشان . ان شاء الله تفطس !

أخذ الطفل الفلسطيني يبكي . فهجم عليه ابوه ، وأخذ يصفعه على وجهه ويضرب كتفه وظهره بقبضة يده .

سرت همهمة احتجاج بين النساء ، فيما كان سعيد يتجه الى الرجل الفلسطيني ، وعلى وجهه ملامح قسوة . وفجأة دفعه بكلتا يديه ، فانقلب الرجل على ظهره ، بينما كان سعيد يصرخ في وجهه :

– وحش ! حيوان !

غير أن الرجل نهض سريعا وهو يشتم ويلعن وارتمى على سعيد يريد الاخذ بخناقه .

لم يكن أحد بحاجة الى التدخل ، اذ سارع سعيد الى التراجع ، ثم انقضّ على الرجل فأخذه من جنبيه بكلتا يديه ، ورفعه فوق رأسه ، والجميع دهشون من أين أتته هذه القوة كلها وهو الجريح ، ومشى به خطوات في اتجاه الحاجز وهو يقول بلهجة أقرب الى الطمأنينة :

– اهدأ ، والاّ القيت بك في البحر !

صرخ الرجل صرخة واحدة :

– دخيلك ! أنا بعرضك !

فتراخت ذراعا سعيد ، وانزل الرجل الى الارض وهو يقول :

– ما هكذا ينبغي ان نتصرّف الان !

قال الرجل متراجعا :

– دخيلك .. المعذرة .. لا مؤاخذة ..

لم يكن أحد يتحرك او يتكلم . واستدار سعيد يبحث عن الطفل ، فوجده مختبئا خلف المرأة السمينة، وملامحه بين الرعب والبكاء . تناول مطرة كانت معلقة على خاصرته ، واعطاها للطفل ، قائلا بهدوء ورقة :

– اشرب .. فيها بقية قليلة .

تناولها الطفل بيديه الصغيرتين ، وعبها كلها في لحظات . ثم التفت الى سعيد ونظر اليه نظرة عرفان صامتة .

انحنى سعيد فحمل الطفل ، ورفعه فوق رأسه وأخذ يرقصه . وضحك الطفل ، وضحك ، وانفرجت اساريرنا جميعا .

وقرّب سعيد الطفل من وجهه وسأله :

– ما اسمك يا حبوب ؟

اجاب الطفل لاثغا :

– سمير ...

تأمله لحظات ، ثم خطا خطوتين نحو ابيه وقال له:

– اعتن بسمير يا أخ . سنحتاجه في المستقبل.

ضم الرجل طفله وقبله ، ثم أنزله الى الارض ، وأقبل على سعيد يعانقه .

أجهشت ربيعة بالبكاء ، بينما كانت عيون الاخرين مخضلة .

٩ – نم قرير العين ...

تسألني ، يا نورس ، عن كمال ؟ اسمع اذن ، يا رفيق الطريق .

لم يكن أحب الى كمال من الاطفال .

حين لا يكون حاملا الكلاشن أو منصرفا الى الحراسة ، يكون بين الاطفال . يلاعبهم . يضاحكهم . يحملهم . يطعمهم . يسقيهم . يسقيهم خصوصا .كان أجرأنا في اقتحام الصعاب لجلب المياه من أخطر المواضع. وكثيرا ما كان يكلفنا ، اذا اشتد القصف وتكاثف القنص ،ان نخطي تحركه باطلاق رشاشاتنا في كل اتجاه.

وكان حين ينجح في مهمته ويعود الى مواقعنا يرفع اناء الماء المليء ويحركه فوق رأسه كأنه علم . فاذا اخفق ، بافتقاده ثغرة ينفذ منها في سدّ النيران ، عاد حاني الراس . كأنه يعاني من مذلة .

ذات مساء ، كان قد انقضى نهار بكامله على الاولاد في حينا . من غير ان يجدوا نقطة ماء . كان كثير منهم يبكون ، والقليل يكتفي بالانين . وكانت الامهات يحاولن الهاءهم بالالعاب أو بالحكايات اذا استطعن ان يحتفظن بانتباههم عبر اصوات الرصاص والانفجارات. وحين استبد بالاطفال العطش، ونحن نصد في الخارج احدى الهجمات الضارية ، روت احدى الامهات أنها قالت وهي تكاد تبكي :

– ما أشد حاجتنا الان الى كمال ! .. ان بقاء الاولاد على قيد الحياة ليس أقل أهمية من الدفاع عن المواقع !

واستطردت هذه المرأة تقول انها فوجئت بكمال ينتصب امامها ، كأنما نبع من الارض ، ويطلب الاناء الفارغ على عجل . وبانتظار ان تأتيه به ، اشتد بكاء أسعد ،ذلك الطفل الجميل الذي كان كمال يوليه عطفا خاصا لاستشهاد أبيه الذي كان صديقا حميما له ، في احدى معارك عنطورة .. وحمل كمال الطفل ، واخذ يهدّيء بكاءه ويقبله في شعره وخديه ، وهمس في أذنه: « اكراما لذكرى ابيك ! »

كانت ساعة من أعنف ساعات القصف ، كأنما هي تمهيد لاكبر هجوم يخطط له العدو . وقد خرج كمال بسرعة البرق يبحث عن الماء . وتأخر عن عادته ، فأخذ القلق يساورنا . وحين طال غيابه ، فكرت بان أخرج بحثا عنه ، فربما يكون قد أصيب برصاصة أو شظية ، وربما يكون بحاجة الى علاج . ولكن الرفاق منعوني . وطلبوا التصبر ريثما يخف القصف أو يصدّ الهجوم . وكان القلق قد بدأ يتحول الى نوع من الخوف المذعور لغيابه ، حين سمعنا صيحته المنتصرة ، وبرز على مدخل الدهليز ،حاملا انائين اثنين، وضعهما على الارض ، ورفع اصبعين من يده ضاحكا وهو يقول : « وجدت الآخر في الطريق ، فقلت نسقي الاولاد الليلة حتى يرتووا ! » .

لم يكد كمال ينهي عبارته حتى حدث انفجار شديد في مدخل الدهليز ...

التقطنا رفيقنا وهو ينزف من جرح كبير في ظهره. وحاول طبيب بكل ما لديه من وسائل محدودة ان يوقف النزيف ، بدا لنا ذات لحظة ان « كمال » قد انقذ حين فتح عينيه ، وقال لي بصوت ضعيف :

– أرجو أن يكون الاطفال قد شربوا .. خصوصا أسعد ..

فأومأت له برأسي ايجابا . فاغمض عينيه ، وارتسمت على شفتيه بسمة راضية .

تلك الليلة ، صدّ ذلك الهجوم كذلك . فهدأت الاسلحة طوال الليل ، واستطاع الاطفال ان يناموا بعد ان ارتووا .

ولكن الذي سقاهم أسلم روحه قبيل الفجر .

هذه ، يا نورسي العزيز ، حكاية كمال .

نسيت تفصيلا صغيرا : ان الطفل الفلسطيني **الذي تسمع بكاءه أحيانا** ، يا نورس ، على ظهر هذه الباخرة .. سمير هذا ، يشبه كثيرا أسعد .

١٠ ــ مسؤولية المجزرة ..

قال الترانزسور :

« اقتحمت قوات انعزالية كبيرة مخيم تل الزعتر أمس بدعم وتخطيط من قيادة قوات دمشق . غير ان المعارك ما زالت تدور داخل المخيم بالسلاح الابيض . وقال راديو صوت الثورة الفلسطينية ان المدافعين عن المخيم يصرون على المقاومة رغم ظروفهم القاسية ، وان النظام السوري يتحمل المسؤولية الرئيسة للمجازر المريعة التي يرتكبها الانعزاليون هناك . والتي وصلت الى حد ممارسة الاعدام بالجملة . واكدت الاذاعة انه ما كان لتل الزعتر ان يصل الى ما وصل اليه من ظروف قاسية ومريرة لولا وجود قوات نظام دمشق التي تحتجز وتشغل قوات كانت ولا زالت على أهبة الاستعداد لفك الحصار عن المخيم (...)

وذكرت وكالة الانباء الفلسطينية ان عددا من عائلات المخيم حاولت الالتجاء الى المنطقة الغربية من بيروت ، ولكن القوات الانعزالية حصدتها بالرصاص. وقالت وكالة اليونيتدبريس نقلا عن أحد سكان مخيم التل ان القوات الانعزالية ارتكبت مذابح شنيعة في القطاعات التي اقتحمتها من المخيم ، وأضافت انها كانت تضع العشرات من الشباب الفلسطيني في صف واحد وتحصدهم بالرشاشات . ووصفت صورة فوتوغرافية فرنسية الجرائم الوحشية التي ترتكبها القوى الانعزالية بأنها منظر لا يمكن أن يصدّق (...) وظهرت أمس مشاهد دامية للحزن والبؤس ، بينما أخذت السيارات الشاحنة تجمع مئات من اللاجئين من مخيم تل الزعتر في مدرسة مهجورة تقع جنوب غربي بيروت . وكان بين هؤلاء الاشخاص مسنّون وأطفال وسيدات من مختلف الاعمار ، كثيرون منهم ينتحبون بصوت عال لما أصابهم من فزع وحزن على مصير أزواجهم وأبنائهم وآبائهم واخوتهم الذين قتلوا اثناء الاشتباكات أو انتزعهم الانعزاليون من بينهم وقتلوهم (...) وكانت هناك امرأة فى خريف العمر تعتمر منديلا أسود اللون تجول هائمة وهي تلوح بقوة . وقال رجل كان في رفقتها ان نيران القصف اصابتها بالصمم (...) وانفجرت فتاة في مقتبل العمر فجأة تبكي عند مدخل المدرسة حزنا على مقتل والدها وأخيها في المخيم

(...) واندفعت فتاة صغيرة نحو أحدهمَ والدموع تنهمر من عينيها ، فأمسكت بذراعه قائلة ان والدها قد قتل وانها تريد ان ترى امها الموجودة في احد المستشفيات (...) وكان زهاء الفي شخص من اللاجئين في المدرسة يسيطر عليهم الصمت والذهول ، ولا يبدون اهتماما بالصراخ والعويل الذي كان يتردد صداه في دهاليز المدرسة .

انقطع صوت المذيع فجأة في الترانزستور ثم استأنف قائلا :

« وردني الان هذا النبأ : سقط اليوم مخيم تل الزعتر بعد واحد وخمسين يوما من الصمود ، وتم اخلاؤه من السكان . أما المقاتلون الخمسون بالسلاح الابيض ، فقد استشهدوا وسحل الانعزاليون جثثهم وربطوهم بسيارات الجيش ، وكانت جثثهم منتشرة على طول الطريق بين ... وبين ... »

١١ ـ على الجميع ...

قالت الفتاة الرشيقة وهي تسد أنفها :

ـ ما هذه الروائح ؟

أجابت المرأة السمينة :

ـ ألم تعرفي بعد أن المرحاض قد فاض ؟

وبالرغم من ان الجميع كانوا يعرفون من قبل ، فأنهم لم يسدوا انوفهم الا في تلك اللحظة . وكانوا قد تجمعوا في أركان الباخرة وزواياها ، بعيدا عن منطقة المرحاض .

وكان أحد البحارة يحاول عبثا ان يفتح المرحاض.

في ذلك الصمت ، ارتفع صوت سمير :

ـ بابا .. أريد أن أبوّل !

تردّد الاب لحظات ، ثم انحنى فنزع سروال ابنه، ورفعه من فخذيه ، مسندا ظهره الى صدره ، موجها عضوه الصغير الى المسافرين ، وقال بصوت مرتفع :

ـ بوّل يا حبيبي !

ثم قهقه ضاحكا :

ـ بول ياروحي ..

وارتفعت قهقهاته وهو يقول :

ـ بوّل على الجميع .. على الجميع ... على الجميع !

وأخذ الطفل يضحك ، وابوه يدور به ، فيتطاير رذاذ بوله في كل مكان .

وكان سعيد في وقفته على الحاجز ، ينظر الى البحر دون ان يلتفت وراءه .

١٢ ـ الكابوس ـ الامنية ...

تلك الليلة كانت باردة . فاقترحت الهام ان ننام جميعا في غرفة البحار قالت اننا سننام جالسين ، لا بأس.المهم ان يطلع علينا الصباح ونحن بازاء الشاطىء. رفضت اقتراح سامي ان احل محله على السرير . أسندت الهام راسها الى كتفي . واسندت منى رأسها الى كتف ربيعة . سنحاول ان نرتب اوضاعنا منذ الغد . غدا نتدبر امورنا . كان شللا لنا جميعا ان نبقى تحت القصف والصواريخ.سيهدر عام دراسي اخر من أعوام الاولاد . وهم يريدون الالتحاق بأية مدرسة . وانا لست لاطيق الصمت بعد . أريد أن ارفع صوتي احتجاجا ، وأكاد لا املك وسيلة ذلك في الداخل .ولكن الامور الى أسوأ ؟ لا بأس . كلها اعراض : قشور . الجوهر هناك ، في وجدان الصامدين ، هؤلاء الذين تكمن مهمتنا في ان نحييهم ، ونمجدهم . ونحدو لهم .

غفوت وانا احاول ان ابعد اخبار الترانزستور .

غالبا ما أنسى في الصباح الاحلام التي تراودني في النوم .

ولكني لم أنس حلم تلك الليلة .

قصر باذخ يشع بالاضواء ، تحيط به الجنائن المتلألئة بالازهار ، ويعج بالسيدات والسادة المترفين، وتعبق العطور من كل ارجائه . فجأة تفيض مراحيضه ، فتجري في غرفه سيول من البول والغائط تجرف الطنافس والاثاث الثمين . وتنفتح فجأة في جدران الغرف منافذ يتدفق منها النفط ، مختلطا بالبول ، وتنفتح فجأة في السقوف منافذ اخرى تتدلى منهااعناق زجاجات تصب الويسكي والشمبانيا على خليط البول والنفط . وتنفتح الابواب الداخلية فجأة لتقذف فوق هذا كله مئات من الاعضاء التناسلية ، لرجال ونساء، مقطوعة من جذورها ، تقطر بالدماء ، فيتورد المزيج رويدا رويدا حتى يصبح احمر قانيا . ومن سقفالقاعة الكبرى في القصر ، تمتد تلك اليد المعروقة القوية ذات القميص الممزق الاكمام ، وبين أصابعها عود ثقاب ، سرعان ما يلتهب به السائل الخليط ، فاذا هو حريق هائل يجتاح القصر من كل جوانبه ، وما هي الا لحظات حتى يتداعى وينهار .

أفقنا جميعا على صرخة اطلقها سامي . قالت الهام مذعورة :

ـ يا ويلي .. عاودته الكوابيس .

هدأت من روعها وانا اقول ان هذا أمر عارض، وان سامي سيتخلص منه في أول مكان يستقر فيه . لم يقنعها كلامي ، وانما خفف من مخاوفها ان سامي سرعان ما عاد الى النوم . وكذلك منى وربيعة .

حاولت أنا كذلك ، متمنيا ان استأنف الحلم . ولكن عبثا ما حاولت . خرجت لقضاء حاجتي ، فعجبت ان ارى المرحاض نظيفا ، لا أثر لبول فيه او غائط ، ولا تنبعث منه أية رائحة .

١٣ ـ حديث صامت

أعذرني ، يانورس . لن أتحدث اليك الآن . كان بودّي ان أروي لك حكاية أحمد . لكني حزين .. حزين حتى الموت .

١٤ ـ سعيد والنورس ...

في وقت مبكر ، رست الباخرة امام الشاطيء . وبدأ المسافرون يتبادلون التهاني بسلامة الوصول ، وأخذوا ينتظرون انهاء المعاملات للهبوط .

بحثت بنظري أفتش عن سعيد ، ثم طفت باركان الباخرة ، فلم أجده .

سألت أحد البحارة ، فقال انه رأى زورقا صغيرا أقبل عند الفجر للقاء الباخرة . ولا يدري ان كان المسافر الذي أسأل عنه قد استقله .

سألت آخرين ، فلم يفدني أحد .

غير أني فوجئت بسمير يقترب مني حذرا ، ثم يلتفت يمنة ويسرة قبل ان يطلب مني الانحناء ليهمس في أذني :

ـ تسأل عن عمو سعيد ؟ انا وحدي رأيته عند الفجر .. لا تقل لاحد ..

ثم ازداد الطفل الفلسطيني مني قربا حتى التصقت شفتاه الندّيتان بأذني ، واضاف :

ـ جاء سرب الطيور الذين رافقونا .. وضعوه على بساط أخضر ، وحملوه بمناقيرهم ، وسافروا به .. الى .. هناك ... هناك .

وأشار سمير بأصبعه الصغير بعيدا ، باتجاه الشرق .

بيروت ـ الاسكندرية
١٣ ـ ١٦ آب ١٩٧٦

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٢٦١ لسنة ١٩٧٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد
١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م